

بسم الله الرحمن الرحيم
من حياة الأتقياء (الشافعي)
الحلقة السابعة والعشرون

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المتقين وسيد المرسلين، نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:-
أيها المستمعون الكرام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، نقف اليوم مع طرف من حياة أحد الأتقياء ، إنه أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي المكي الغزي المولد . كان مولده بغزة ومات أبوه إدريس شاباً فنشأ محمد يتيماً في حجر أمه فخافت عليه الضيعة فتحولت به إلى مكة وهو ابن عامين فنشأ بها وأقبل على الرمي حتى فاق فيه الأقران وصار يصيب من عشرة أسهم تسعة ثم أقبل على العربية والشرع فبرع في ذلك وتقدم . ثم حجب إليه الفقه فساد أهل زمانه . حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين وفظ الموطأ وهو ابن عشر.

هكذا كانت بداية حياة هذا الفتى فقد كان حريصاً على العلم جاداً في كل أموره، فلم يعرف للهو طريقاً ، ولا للكسل أرضاً، فقد كان شبابه على طلب العلم، وحميد الخصال، حتى أدرك ما أدرك من حميد الأفعال .

كان هذا الإمام شغوفاً بطلب العلم ، ولو كلفه ذلك ما كلفه، فقد كان (رحمه الله) ينتقل من بلد إلى بلد، لتحصيل العلم، فارتحل من مكة إلى المدينة ، وهو ابن نيف وعشرين سنة وقد أفتى وتأهل للإمامة، فحمل عن مالك بن انس الموطأ عرضه من حفظه وقيل من حفظه لأكثره . ورحل إلى اليمن وبغداد وأخذ عن علمائها.

أيها المستمعون الكرام، نستمع إلى صاحبنا وهو يصف نشأته فيقول : ولدت بعسقلان فلما أتى علي سنتان حملتني أمي إلى مكة . ويقول أيضاً : كنت ألزم الرمي حتى كان الطبيب يقول لي اخاف ان يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر قال وكنت اصيب من العشرة تسعة .

وقال الحميدي سمعت الشافعي يقول كنت يتيما في حجر أمي ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب وأخفف عنه. نعم كان الشافعي في بداية حياته في العلم ينوب عن المعلم في حال غيابه ويخفف عنه، ولعل ذلك كان مقابل ما يدفع للمعلم أجرة على تعليمه .

ولنا أن نتساءل الآن كيف كان الشافعي يكتب العلم، هل كان يكتبه على الحاسب ، أو كان يكتبه بخط يده، بأوراق ناصعة البياض، أو أخرى مزركشة ملونة، يحدثنا عن هذا الجانب فيقول : كنت أكتب في الاكتاف والعظام وكنت اذهب إلى الديوان فأستوهب الظهور فأكتب فيها .

كان الشافعي (رحمه الله) يتعاهد أصحابه بالنصح والفائدة ، فمن ذلك قوله للربيع : يا ربيع اقبل مني ثلاثة : لا تخوضن في اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن خصمك النبي صلى الله عليه وسلم غدا، ولا تشتغل بالكلام فيني قد اطلعت من اهل الكلام على التعطيل، وزاد المزني ولا تشتغل بالنجوم .

ومما يدل على اخلاصه في نفع الناس قوله : وددت ان الناس تعلموا هذا العلم يعني كتبه على ان لا ينسب الي منه شيء .

ومع حرصه (رحمه الله) على تعليم الناس العلم النافع ، فإنه في المقابل يحذر من العلوم التي لا تنفع أهلها ، بل تضرهم ، فيقول في اهل الكلام : حكمي في اهل الكلام ان يضربوا بالجريد ويحملوا على الابل ويطاف بهم في العشائر ينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام.

وقال ابو عبد الرحمن الاشعري صاحب الشافعي قال الشافعي: مذهبي في اهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط، وتشريدهم في البلاد. قال الذهبي : لعل هذا متواتر عن الامام.

أيها المستمعون الكرام ، لنا أن نتساءل الآن : كيف كان الشافعي (رحمه الله) يقسم وقته ؟

يحدثنا عن هذا الربيع بن سليمان فيقول : كان الشافعي قد جزأ الليل فثلثه الاول يكتب والثاني يصلي والثالث ينام .

قال الذهبي : افعاله الثلاثة عبادة بالنية

وعن حسين الكرابيسي قال : بت مع الشافعي ليلة فكان يصلي نحو ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمئة آية وكان لا يمر بآية رحمة الا سأل الله ولا بآية عذاب الا تعوذ وكأنما جمع له الرجاء والرغبة جميعا .

أيها المستمعون الكرام ، كيف يجزؤ الإنسان وقته في هذا الزمان؟ هل للصلاة منه نصيب ؟ هل لطلب العلم منه نصيب ؟ هل للعبادة بشكل عام منه نصيب؟ نرجوا ذلك إن شاء الله ، فشباب الإسلام أهل لذلك . فليحذروا من إضاعة ساعات الليل الثمينة فيما لا ينفع في الدنيا والآخرة ، أو ربما ضر وما نفع ، فعليهم البعد عن السهر على المحرم، اعاذنا الله وإياهم من كل مكروه .

أيها المستمعون الكرام ، لم تكن سعة علم الشافعي (رحمه الله) محصورة في علم الشريعة فحسب ، بل في اللغة والشعر والأنساب والطب وغيرها من صنوف العلوم ، فقد أوتي عذوبة منطق ، وحسن بلاغة ، وفرط ذكاء ، وسيلان ذهن ، كمال فصاحة ، وحضور حجة . فعن عبد الملك بن هشام اللغوي قال: طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنه قط . قال الذهبي : أنى يكون ذلك ومثله في الفصاحة يضرب المثل كان أفصح قریش في زمانه وكان مما يؤخذ عنه اللغة .

كان الإمام الشافعي (رحمه الله) مضرب المثل للعالم المخلص ، الذي يبتغي بعلمه وتعليمه وجه الله سبحانه وتعالى ، يدل على ذلك قوله : وددت أن كل علم أعلمه تعلمه الناس أوجر عليه ولا يحمدوني .

وقد كان أهل العلم يحرصون على تلقي علم الشافعي ، ويوصون به ، قال علي بن المديني : عليكم بكتب الشافعي .

وقال أحمد بن حنبل أحمد بن حنبل : لقد من الله علينا به لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا فلما سمعنا كلامه علمنا انه أعلم من غيره وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير فقليل له يا ابا عبد الله كان يحيى وأبو عبيد لا يرضيانه يشير إلى التشيع وانهما نسباه إلى ذلك فقال أحمد بن حنبل ما ندري ما يقولان والله ما رأينا منه إلا خيرا .

ومما يؤثر عن الشافعي (رحمه الله) تلك المواعظ البليغة سواء الثرية منها أو الشعرية، تلك المواعظ التي تلين القلوب وتوقظ النفوس ، فعن المزني قال دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبد الله كيف أصبحت؟ فرفع رأسه وقال: أصبحت من الدنيا راحلا، وإخواني مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا، ما أدري روعي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي * جعلت رجائي دون عفوك سلما

تعاضمني ذنبي فلما قرنته * بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منة وتكرما

هذه حال الأتقياء مع ما هم عليه من التقوى والورع ، والزهد ونشر العلم ، والدعوة إلى الله ، والخوف والخشية منه سبحانه وتعالى ، فماذا يقو الشباب الذين كثرت ذنوبهم ، وليس لهم من التقوى ، والورع ، والخشية ، ونصيب العلم كما كان للشافعي (رحمه الله) .

إن هذه الكلمات من ذلك الإمام الزاهد العابد لهي موعظة بليغة في الخوف من الله سبحانه وتعالى ، والوقوف مع النفس موقف حساب ، قبل أن يأتي يوم لا يستطيع فيه الخلاص من تلك الذنوب . قال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١١) ﴾ [المنافقون] .

ومن لطف الله سبحانه وتعالى بعباده ورحمته بهم فإنه يناديهم في وقت الإمهال قائلاً: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣) ﴾ [الزمر] . فالمولى سبحانه وتعالى وهو الغني عن عباده ، لا تنفعه طاعة المطيع ، ولا تضره معصية العاصي، ينادي عباده هذا النداء فحري بالمسلم أن يستجيب نداء ربه ، ويقلع عن ذنبه ، ينال بذلك سعادة الدارين .

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أيضاً ما أخبر به المصطفى (صلى الله عليه وسلم) حين قال : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» . أخرجه مسلم .

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا
عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي وَاللَّهُ لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ
بِالْقَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا
أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهْرُولُ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ .

أيها المستمعون الكرام ، في الختام أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده المتقين،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد على آله وصحبه
أجمعين ...